# الصلة بين التاريخ والجغرافيا

الاستاذ الدكتور علي محمد المياح
عضو شرف / المجمع العلمي

## المقدمة

تبرز بعض المشاكل التي تجابه البحث الجغرافي في يومنا هذا من طبيعة ظواهر سطح الارض ذاتها . والظواهر التي يعنى الجغرافي بالتحري عن تكاملها الاقليمي لها أبعاد مكانية كما لها مراحل زمنية ، تطورت خلالها واستقرت على نوعيتها وصورتها الحاليتين . وقد حمل هذا الأمر بعض الجغرافيين على القول بان تطورات أو تغيرات ظواهر سطح الأرض يجب ان تحظى باهتمام الباحث الجغرافي . وان الاحاطة بعلاقاتها الزمنية لها اهمية بالغة لا يمكن إغفالها [1] . وهكذا تصبح دراسة التاريخ مهمة جدا لانه يعنى بتقصي الاحداث المهمة والإفادة عن أسبابها وما تركته من اثار في الانسان . ويحاول التاريخ ف خضم دراسته أن يكشف عن تكاملها زمنيا . ويستمد الحدث التاريخي بعض مقوماته من مكان حدوثه ويرتبط بمجريات الأحداث اقليميا . وهكذا تبرز علاقة متبادلة بين هذين الحقلين من حقول المعرفة . ولكن الى أي مدى تتداخل موضوعات الدراسة الجغرافية والتاريخية ؟ هذا سؤال ليس من السهل الاجابة عليه . فادراك العلاقة المتبادلة بينهما يجب الا يؤدي الى الخلط بين وظيفة كل منهما وجوهر مادته العلمية . فذكر مواقع الاحداث التاريخية ، او تحديد موقع مدينة معينة لا يجعل منها بحثا جغرافيا . لذا فان ايجاد العلاقة بين الجغرافيا والتاريخ أمر تعترضه صعوبات بالغة . ففهم التاريخ فهما عقلانيا يتطلب معرفة جيدة بتغير ظروف البيئة التي تقع في إطارها أحداث التاريخ ، بل ان مثل هذه المعرفة تعد ضرورة ، في كثير من

(1) Richard Hartshorne , The Nature of Geography , Annals of Asso. of Amer . Geographers , Vol. XXIX, No. 3 and 4, Lancaster , Pennsylvania , 1939 , P. 176

الاحيان ، لاختبار صدق الرواية التاريخية والتثبت من مدى صحتـــها . وتحقيـق هـذا الغرض يتطلب معرفة ابعد الدراسة الجغرافية والتاريخية .

**تعريف التاريخ والجغرافيا :**

رغم كثرة ما يكتب عن هذين الحقلين من حقول المعرفة فان الحاجة تتطلب في هـــذا المجال الاحاطة بتعريف كل منهما بشيء من الايجاز .

**التاريخ :**

مما يلاحظ ان الدراسات التاريخية تنصرف الى ذكر تاريخ الانسان على سـطح الارض . ولكن غايتها لا تقتصر على هذا الجانب فقط بل تتناول عدة أشياء هي :

(١) سرد الأحداث وفق زمن حدوثها دون تعليق كما يطالعنا ذلك في كثير مـــن كتـب التاريخ ماضيا وحاضرا . ويقتصر هذا السرد في جميع الاحوال على ذكر الأحداث المهمة .

(٢) وبناء على هذا تبرز فكرة اخرى هي التاريخ مجرد افادة عن الأحداث المهمة وفقا لزمن حدوثها . وفي هذه الحالة لابد من معرفة سبب اهميتها وان نفكـــر بمعنـى أهميتها . ونخلص من ذلك الى ان الاحداث المهمة هي التي تترك آثـــارا انســانية بعيدة وتقل اهميتها اذا لم تترك مثل هذه الآثار .

(٣) ويترتب على هذا التعريف في الحال فكرة ثانية عن التاريخ بحيث يصبـح قصـة الاحداث المهمة التي حدثت وافدة عن الأسباب التي أدت الى حدوثها والآثار التـي تركتها في حياة الانسان . وفي تقدير هذه الأهمية يجب ان نتذكـــر بـان بعـض الأحداث تترك تايرا عظيما في حياة الانسان لوقت معين ثم يقل أثرها بعد ذلـك ، بينما الاخرى لا تترك الا اثارا طفيفة في بداية الامر ولكنها تستمر تفرز نتائجـها لمدة طويلة .

وعندما ينظر الى التاريخ من هذا المنظور سيظهر ان بعض الأحـــداث التـي تبدو قليلة الأهمية هي الأحداث المهمة في الواقع ، أما الأحداث التي تبدو مهمة جدا فـــي أول الأمر فتحتل مكانة أدنى . وسيظهر ان أسباب التاريخ ونتائجه مترابطة بشكل يصبـح التاريخ بموجبها مادة عضوية . وانه عبارة عن أحداث معينة تؤدي الى أحداث اخـــرى . فما تفعله مجموعة من الناس او شعب من الشعوب يؤثر في أفعال مجموعات او شـــعوب

اخرى . وهكذا تصبح دراسة التاريخ مهمة جدا لانه يتناول دراسة الانسان وعلاقاته مع الاخرين وتاثير بعضهم على البعض . وتكشف دراسة التاريخ عن ناحية مهمة هي ان الانسان يمتلك خصائص متشابهة رغم الفواصل الزمنية او التباعد الجغرافي . ولذلك قد تحدث أحداث متماثلة جدا في مختلف أنحاء العالم بفعل هذا التشابه . وقد دفعت هذه الظاهرة بعض الباحثين الى القول بان التاريخ يعيد نفسه .

وفي سياق مجريات الأحداث يكتسب الانسان خبرة وتقدما . وليس من السهل على الانسان ان يجد ، في هذا المجال طريقا مختصرا . ولكن يمكن القول ان التاريخ ، في أوسع معانيه ، من الناحية المادية ، هو قصة تزايد الانسان للتحكم بالطاقة . والمقصود بالطاقة هنا القدرة على القيام بالعمل او تسبيب الحركة لا السيطرة عليها ، لعمل الاشياء او جعلها تقف . فاختراع الكتابة والعجلة والمسحاة وغيرها مما تفتقت عنه عقلية الابداع عند ابناء العراق في عصور التاريخ الاولى التي عاشها الانسان ، تركت آثارا واضحة على مسار تاريخ الانسان على سطح هذه الارض . وتتبع أهمية هذه الأشياء وغيرها من انها مكنت الانسان من استخدام الطاقة وتوفيرها . اذ أصبح بمقدور الانسان التحكم في النهر ، لا القدرة على صنع نهر ، اي العمل على جلب الماء . وعندما يقال ان الجغرافيا تتحكم باحداث التاريخ فلا يقصد بذلك ان الأحداث أصبحت مجبرة لاستخدام مزيد من الطاقة وفقا لنوعية الظروف الجغرافية . ولكن المقصود بذلك الطريقة المحددة التي اصبح التاريخ يعمل بموجبها هي التي لها علاقة بظروف البيئة الجغرافية الى حد بعيد [٢] .

**الجغرافيا :**

تفسح هذه المناقشة الطريقة لمعرفة دلالة الجغرافيا وتحديد تعريفها . وهذا موضوع اصابه تغير وتطور كبير فكرا ومنهجا في العقود القليلة الماضية ولا سيما حقل الجغرافيا البشرية . وجاء هذا التغير في اغلب الاحوال مصاحبا لوجهة نظر الجغرافيين

(2) James Fair grieve , Geography And World Power University of London Press , Ltd. , 1921 , pp. 1-16

في جوهر دراستهم في ضوء معطيات العلم وتطور حقول المعرفة العامة . وللاحاطة بجوانب هذا الامر لا بد من طرح اسئلة معينة هي :

(١) ما هي الجغرافيا ؟

(٢) ما الذي يهتم به الباحث الجغرافي ؟

(٣) ما هي طريقة البحث التي يتبعها الباحث الجغرافي تحقيقيا لاغراض بحثه ؟

وتاتي إجابة السؤال الأول في تعاريف الجغرافيا التي تداولها الجغرافيون خلال قرن مضى من الزمن . وتشمل هذه التعاريف الآتية :

(١) دراسة علاقة الانسان ببيئة لاسيما البيئة الطبيعية . وكان من نتائج ذلك ان كثر الحديث عن ( حتمية البيئة ) .

(٢) دراسة التباين الاقليمي رغم ان التشابه هو الذي يوصل الى استخلاص قواعد عامة يمكن الركون اليها .

(٣) دراسة العلاقات المكانية ، أي ان ظواهر سطح الارض توجد نتيجة اقتران عدة متغيرات في مكان معين وان اختلاف هذه المتغيرات ، نوعا او كما ، يصاحبه تغير في هذه الظواهر .

وهنا لا بد من تذكير الباحثين في هذا الحقل من حقول المعرفة ان العلاقة المكانية قد توجد بين مكانين خاليين وان وجود علاقات مكانية لايعمل على وجود صلة بين الاشياء . ان الظواهر التي ترتبط بالمكان فقط هي ظواهر مستقلة ليس لها تأثير على بعضها [٣] . والواقع ان هذه التعاريف وان اختلفت صيغها وتنافرت وجهات النظر التي تنطلق منها فان هناك سمة عامة مشتركة تسم الدراسات الجغرافية وتميزها عن غيرها كحقل من حقول المعرفة من ماضيها وحاضرها . فما جاء في كتاب الجغرافي العربي ابن حوقل البغدادي من تحديد لماهية الجغرافيا في جوهره عن هذه التعاريف اذ يقول : ( . . . وقد جعلت لكل قطعة افردتها تصويرا وشكلا يحكي موضع ذلك الاقليم ، ثم ذكرت ما يحيط به من الاماكن و البقاع ، وما في اضفافها من المدن والاصقاع ، وما لها

(3) R.Harre , The Philosophies of Sicience , Oxford University , Press , London , 1974 , PP. 110-120

من القوانين والارتفاع ، وما فيها من الانهار والبحار . ومايحتاج لمعرفته من جوامع ما يشتمل عليه ذلك الاقليم من وجوه الاموال والجبايات والاعشار ، والخراجات والمسافات في الطرقات ، وما فيه من المجالب والتجارات ... ) [٤] . وهذا ما يذهب اليه دارس الجغرافيا الاقليمية في يومنا هذا .

**العلاقة بين التاريخ والجغرافيا**

لعل البلاذري من المؤرخين العرب الاوائل الذي تناول العلاقة بين التاريخ والجغرافيا . فكتابه يتناول ، فضلا عن الفتوح مادة جغرافية وعمرانية وسياسية لم يتطرق اليها أي من كتب التاريخ . ففي حديثه عن تمصير البصرة ، مثلا ، يذكر الاخوار وتعريفها وغورة الاجانة والانهار والجزر والسباخ [٥] . واستفاد اليعقوبي من ميله المزدوج الى التاريخ والجغرافيا فكاد ان يحقق نمطا اصيلا يسبق فيه وصف الاطار الجغرافي والبشري بصورة طبيعية سرد الاحداث الجارية فيه ويكملها ويفسرها [٦] . فعندما يتحدث اليعقوبي عن بغداد يبدا بكر موجز تاريخ الدولة العباسية ، ثم ينتقل الى شرح جغرافيتها الاقليمية عامة ، بدءا بموقعها وظروفها المناخية ودرجات في الشتاء والصيف موازنا ذلك بالشام ومصر وافريقية وكور الجبل والتبت وغيرها ، ثم ينتقل الى جغرافيتها البشرية فيذكر زروعها وخططها وأسواقها وسكانها وقطائعها وارباضها وانهارها[٧] (٧) . وينوه عن منهجه هذا بصراحة في مقدمته فيقول : ( وقد ذكرت اسماء

---

(٤) ابو القاسم محمد بن علي الموصلي الحوقلي البغدادي (عاش في انصف الثاني من القرن الرابع الهجري ) صورة الارض ، منشورات دار مكتبة الحياة ، بيروت ، ١٩٧٩ ، ص ١٠.

(٥) ابو الحسين احمد بن يحيى بن جابر بن داود البلاذري (ت/٢٧٩ ه) فتوح البلدان ، دار مكتبة الهلال ، بيروت ، ط ١ ، ١٩٨٤ ، ص ٣٣٧ – ٣٤٧ .

(٦) اندريه ميكيل ، جغرافية دار السلام البشرية ، ترجمة ابراهيم الخوري ، منشورات وزارة الثقافة ، دمشق ، القسم الثاني ، ١٩٨٣ ، ص٤٩ .

(٧) احمد بن ابي يعقوب بن واضح الكاتب المعروف باليعقوبي ( ت ٢٨٤ هجرية ) كتابه البلدان ، ليدن ، مطبعة بريل ، ١٨٩١ ، ص ٢٣٣-٢٥٤ .

الاجناد والكور وما في كل مصر من المدن والاقاليم والطاسيج ، ومن يسكنه ويغلب عليه ويترأس فيه من قبائل العرب واجناس العجم ، ومسافة ما بين البلد والبلد والمصر والمصر ، ومن فتحه من قادة جيوش الاسلام ، وتاريخ ذلك في سنته واوقاته ومبلغ خراجه ، وسهله وجبله وبره وبحره ، وهوائه في شدة حره وبرده ومياهه وشربه [٨] . ولكن المفهوم الحديث للعلاقة بين التاريخ والجغرافيا ظل عند اليعقوبي خطوطا عريضة عامة . والتفت ابن خلدون الى ان فهم التاريخ فهما عقلانيا يتطلب معرفة جديدة بتغير ظروف البيئة التي تسارعت في رحابها احداث التاريخ حيث يقول : ( ان كل حدث من الحوادث ، ذاتا كان او فعلا ، لابد له من طبيعة تخفه في ذاته وفيما يعرض له من أحواله ، فاذا كان السامع عارفا بطبائع الحوادث والاحوال في الوجود ومقتضياتها اعانه ذلك في تمحيص الخبر على تمييز الصدق من الكذب ) [٩] . ولذلك فانه فانه يأخذ على المسعودي ما نقله عن الاسكندر لما صدته دواب البحر عن بناء الاسكندرية . ويظهر خطر هذه الرواية في ضوء ما يحدث للمنغمس في الماء . وعلى هذا الغرار يفند ما نقله البكري عن بناء المدينة المسماة ( ذات الابواب ) ، لان حجمها كان من السعة بحيث يتناقض وأغراض بناء المدن من تحصن واعتصام [١٠] .

ومع ذلك بقي التاريخ يتتبع احداث الزمان وتعاقبها حتى الفتح بفضل ( ابن خلدون ) على الجغرافية البشرية . ولذلك فان تركيب هذه العلاقة يقضي ان يلم المؤرخ بمثل هذه المعرفة الجغرافية ، والا فان دراسته لا تكلل بالنجاح . ومثل هذا القول يسري على الجغرافي الذي يعنى بهذا النوع من مشاكل الدراسة الجغرافية . اذ لا بد من حصر دراسته بمدة زمنية معينة ، او منطقة معينة او كليهما معا . ولابد للباحث الجغرافي الذي يحاول فهم التاريخ فهما عقلانيا ، كما ذكرنا ، ان يكون ملما باحداث التاريخ الماما جيدا . لان عنايته في مثل هذه الحالة تنصب على التاريخ لا الجغرافيا . أي ان الأحداث

---

(٨) المصدر نفسه ، ص ٢٣٣ .

(٩) عبد الرحمن بن محمد بن خلدون ( ت ٨٠٨ هجرية ) مقدمة ابن خلدون ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، سنة – ، ص٣٦ .

(١٠) المصدر نفسه ، ص٣٧ .

التاريخية تدرس في ضوء جوانبها الجغرافية . ولكن الى أي حد يمكن ان يعنى البـــاحث الجغرافي بتعاقب التطور التاريخي ؟ هذا سؤال تختلف فيه اراء الجغرافيين وتتشعب بـــه دروبهم . فبعضهم يصر على إبراز وجهة النظر الجغرافية ، ويعتبر الحفاظ عليها أمـــرا أساسيا ، وان الاهتمام بعلاقات الظواهر المكانية ، يجب ان ينـــال مكانـــة بـــارزة ، وان تنحسر العلاقات الزمنية الى مكانة ثانوية مكملة فحسب . بينما يرى اخرون ان العناية بها لها أهمية بالغة .

ان الحديث عن هذه المشكلة قد يبدوا يسيرا وواضحا من الناحية النظرية ، ولكن الدراسة الجغرافية العلمية لتحقيق ذهه الغاية ادت الى نوع مـــن الدراســـات ، يصعـــب تمييزها عن الدراسة التاريخية .

وللتاريخ جوانبه التطبيقية العلمية اذ بالامكان ، مثلا ، تطبيق طرائق العلم علـــى احداثه والتوصل الى قوانين خاصة بالتطور التاريخي يمكن بـــها ان نقـــول ان ظواهـــر تاريخية معينة تسببها ظواهر معينة اخرى . ولكن الحاجة تقتضي ، لتحقيق ذلـــك ، فـــهم دور الافكار في التاريخ وفي الطرق التي تؤثر فيها هذه الافكار بعضها علـــى بعـــض . فضلا عن فهم الطرق التي تؤثر فيها على الانتاج المادي والتنظيـــم الاجتمـــاعي . وقـــد طرقت الجغرافيا في وسائل بحثها العلمية هذا الميدان ودخلت مدخل العلـــوم التطبيقيـــة . ولكن التوجه العلمي نحو التاريخ غير كاف بحد ذاته على الرغم من انه يشـــكل منطلقـــا نظريا مفيدا جدا . فالتاريخ بكل وضوح اكثر تعقيدا وتشـــعبا مـــن العمليـــات الطبيعيـــة الفيزياوية والحياتية من نواحي مختلفة . اذ من الصعب استخلاص عنصر واحد فقط مـــن واجهة التجارب التاريخية والقول بانه بسبب ، بشكل أو آخر ، العنـــاصر الاخـــرى . ان مجال التاريخ يختلف عن مجال العلوم الطبيعية ، وهذا يعني ان ليس بمقدورنا ان نتجنـــب كافة تاملات التاريخ . كما اننا لا نستطيع ان نضع نظرية تاريخية ينسجم فيها كل شيء ، فالتاريخ مملوء جدلا ونظريات مختلفة تتصارع فيما بينها لانها تنبع من فلسفات مختلفـــة . ولاننا ، من ناحية اخرى ، نستعمل التاريخ بطريقة تختلف عن طريقة استعمال العلم [١١].

(11) Karl Pearson , The Grammer Of Science , Meridian Books , Inc., U.S.A., PP. 19 – 30 .

ومع ذلك فقد عصفت رياح التغيير بمناهج البحث التاريخي ولم تعد الدراسات التاريخيـــة مجرد سرد أحداث تبعا لتسلسلها الزمني . فقد برزت دراسات تاريخية تاخذ بمناهج البحث العلمي وتسير وفق مقتضياتها . واصبحت للتاريخ مجلة تنشر أبحاثا تعنى بأحداثه وفـــق مناهج بحث احصائية رياضية . وعن هذا السبيل عادت الصلـــة قويـــة بيـــن التـــاريخ والجغرافيا . فوحدة العلم بطريقته لا بمادته .